

*Commenter en arabe le texte suivant et traduire le premier paragraphe.*

إن كان الكلام بينكما عن المدنية الصحيحة التي تقوم على الحرية والمساواة والإخاء حقيقة، وتعم الخلق من غير استثناء بالعدل والاحسان، وتوفر لهم أسباب السلم والأمن في السعة والرخاء، فلسنا منها في شيء، إن كنا نظنها مقصورة على إتقان الآلات وحشد الجنود، والتفنن في تشييد قوى الحرب، وإنفاق ثروة في سبيل ذلك، حتى تضيق بنا الأرزاق في أرضنا، فنعمل على طلبها في أنحاء المسكونة، ونسلط على أهلها هذه القوى الحربية. ولسنا من المدنية في شيء أيضاً، إذا كنا نعتبر أنفسنا ملائكة الأرض، وصفوة البشر، وأرباب الخلق فنحتقر بقية العالم، ولا نرضى منهم إلا بتغيير أخلاقهم ونسخ عاداتهم، وأن يفوضوا إلينا أمورهم، ويسلموا إلينا مقاليدهم ونكون فوقهم كالأوصياء نصرّفهم إلى ما نحبّ ونسوقهم إلى ما نهوى. وليست المدنية أن نذهب إلى الصين في أقصى الأرض، وهو آمن مطمئن بين أهله وولده في عيش يرتضيه ونظام يألفه فنقول له : قم فقد جئناك بالهدى والحق، فهلم كسر أصنامك، واهدم مناسكك، واحرق كتابك، وغيّر ثيابك، وبذل طعامك وارفع حجابك، وكن أوروبيا في الصين القديم، وغريباً في الشرق الأقصى، فإذا قال لنا : لست ألقه شيئا مما تدعوني إليه، ولا أدري ما هذا الدين الذي تبليغوني رسالته؟ قلنا له : ليس هذا بدين ولا مذهب، وإنما هي دعوة المدنية الغربية ندعوك إليها لتقرّها وتتلّس بها، فيقول لنا : إن كانت لكم مدنية غربية فلنا مدنية شرقية أسسها تجارب القرون المترامية، وبقيت فيها نقيّة خالصة هدّبتها الدهور، وأخلقتها يد الزمان، وليس يبقى على الزمن من الأخلاق والعادات إلا ما كان له أصل ثابت وجوهر نقي. وأنتم إن كنتم تؤرّخون وجودكم في العالم بسبعة آلاف من السنين، فنحن نؤرّخ وجودنا بمئات الألوف، وإن كانت مدنيّتكم بنت قرن أو اثنين، فإنّ مدنيّتنا بنت عشرات القرون، اصطلحنا عليها وأفناها، وطاب لنا العيش بها طول هاتيك الدهور.

ومن دلالات المدنية الصحيحة أن تعيش فيها بأمن وسلام لا يطمع أحد فيما ليس له، ولا يغير على حق لغيره، وقد علمتم أننا عشنا دهرنا الطويل لم نطمع في أرضكم ولم نثر حرباً لفتح، ومن دلالتها أنها لا تنتهي بأصحابها إلى مفاصد الترف والنعيم فتضعف الأجسام ويقلّ النسل، وقد علمتم أنّ بلادنا هي أكثر البلاد سگاناً وأعظمها عمراناً. فنقول له : ما أضلّ أحلامكم يا معشر الصينيين ألم تعلموا بأنّ مدنيّتنا هي مدنية العالم كله لا سواها، قامت على العلوم والمعارف، واستوت على أساس متين فكان ينشده الخلق منذ القدم، فما زالوا يتخبّطون دون الوصول إليها، حتى سمحت الطبيعة آخر الدهر فأنجبتنا لها، فأخرجناها للناس هدى ورحمة، وعهدنا على أنفسنا دعوة الخلق إليها ليمسعدوا بها مدى الحياة؟ بهذا وصانا أئمة المدنية فينا ورجال الدعوة مثلاً.

إن كانت هذه هي المدنية التي نفاخر بها ونساجل، فلا بدع أن يعتقد أهل الشرق أنّها ليست إلا وسيلة من وسائل الفتوحات لنيل المطامع وبلوغ المآرب.

محمد المويلحي (1868-1930)، حديث عيسى بن هشام، 1907.